اضْطِرَابُ سَفَر الحَوَالي
بَيْنَ مَذْهَبِ
الإِرْجَاء وَالخَوَارِج!!

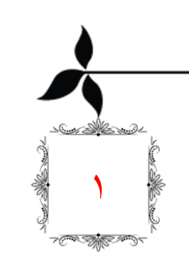
كَتَبَهُ

أبو معاذ رائد آل طاهر

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين







اضْطِرَابُ سَفَر الحَوَالي بَيْنَ مَذْهَبِ الإِرْجَاء وَالخَوَارِج!!

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومَنْ سار على نهجه إلى يوم الدِّين؛ أما بعد:

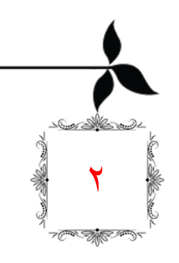
قال د. سفر الحوالي في كتابه "ظاهرة الإرجاء" الجزء الثاني؛ باب "**العلاقة بين إيمان القلب وإيمان الجوارح**" ضارباً أمثلة لتوضيح تلك العلاقة؛ ومن هذه الأمثلة:

((**ترك الزنا: وهو عمل الجارحة، وهو من الإيمان؛ بدليل نفي الشارع الإيمان عمن فعله، وهو يشمل: قول القلب؛ أي: الإقرار بحرمته وتصديق الشارع في ذلك، وعمل القلب؛ وهو الانقياد والإذعان بالكره والنفور والإرادة الجازمة لإمساك الجوارح عنه، وعمل الجوارح؛ وهو الكف عن فعله ومقدماته.**

فمن ارتكب هذه الفاحشة بجوارحه: فإنَّ عمل قلبه مفقود بلا شك -خاصة حين الفعل-!!، لأنَّ الإرادة الجازمة على الترك يستحيل معها وقوع الفعل.

فمن هنا: نفى الشارع عنه الإيمان تلك اللحظة "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"، لكن وجود قول القلب عنده منع من الحكم بخروجه من الإيمان كلِّه!!؛ خلافاً للخوارج!!.





فلو أظهر ما يدل على انتفاء إيمان القلب واستحلاله له: لكان خارجاً من الملة عند أهل السنة والجماعة، أما مجرد الفعل فإنما يدل على انتفاء عمل القلب لا قوله!!)) انتهى كلامه.

خلاصة هذا الكلام أمران:

الأول: أنَّ وجود قول القلب –مع فقدان عمله– يمنع من الحكم على صاحبه بالخروج من الإيمان!!.

الثاني: أنَّ مجرد فعل الكبيرة –مثل الزنا– يدلّ على انتفاء عمل القلب وفقدانه!!.

والأمر الأول: يؤيِّد مذهب المرجئة؛ قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في [الصلاة وحكم تاركها ص٧١]: ((وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق: فهذا موضع المعركة بين **المرجئة** وأهل السنة؛ فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب؛ وهو محبته وانقياده))؛

وقد قال شيخه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى قبله في [الصارم ٣/ ٩٦٦] في موضع رده على شبه المرجئة والجهمية: ((فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب: لم ينفع ذلك التصديق، ولم يُغنِ شيئاً)).



أما الأمر الثاني: فقد نحى فيه د. سفر على مذهب الخوارج؛ لأنَّه إذا كان مجرد فعل الكبيرة (الزنا) يدل على انتفاء عمل القلب؛ فهذا يعني: انتفاء أصل الإيمان الذي في القلب؛ وبالتالي الوقوع في الكفر الأكبر المخرج من الملة كما هو معلوم؛ وهذا هو مذهب الخوارج القائلين: بـ "تكفير فاعل الكبيرة" لكن على طريق اللف والدوران!!.

فلابدَّ أن نعلم أنَّ أصل الإيمان الذي في القلب يتكون من: أصل القول وأصل العمل؛ لا من القول فقط!!؛ ونقصد بأصل القول: تصديق القلب، وأصل العمل: انقياده ومحبته، فمتى انتفى أحدهما انتفى أصل الإيمان الذي في القلب؛ وهذا يعني الكفر.

وإليك من أقوال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ما يؤكِّد ذلك:

١- ((فالإيمان لابدَّ فيه من هذين الأصلين: التصديق بالحق، والمحبة له؛ فهذا أصل القول، وهذا أصل العمل)) [٧/ ٥٤٠-٥٤١].

٢- ((وكلام الله خبر وأمر؛ فالخبر: يستوجب تصديق المخبر، والأمر: يستوجب الانقياد له والاستسلام؛ وهو عمل في القلب؛ جِماعه: الخضوع والانقياد للأمر **وإنْ لم يفعل المأمور به**؛ فإذا قوبل الخبر: بالتصديق، والأمر: بالانقياد؛ فقد حصل أصل الإيمان في القلب، وهو الطمأنينة والإقرار؛ فإن




اشتقاقه من: الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقرَّ في القلب: التصديق، والانقياد)) [الصارم المسلول ٣/ ٩٦٧].

٣- ثم قال في ردِّه على المرجئة: ((ولو أنَّهم هُدوا لِما هُديَ إليه السلف الصالح: لعلموا أنَّ الإيمان قول وعمل؛ أعني في الأصل: قولاً في القلب، وعملاً في القلب.

فإنَّ الإيمان بحسب كلام الله ورسالته؛ وكلام الله ورسالته: يتضمن أخباره وأوامره؛ فيصدق القلب: أخباره تصديقاً يوجب حالاً في القلب بحسب المصدق به، والتصديق: هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام: هو نوع من الإرادة والعمل؛ **ولا يكون مؤمناً إلا بمجموع الأمرين**؛ فمتى ترك الانقياد: كان مستكبراً؛ فصار من الكافرين وإن كان مصدقاً، والكفر أعم من التكذيب؛ يكون تكذيباً وجهلاً، ويكون استكباراً وظلماً)) [المصدر السابق ٣/ ٩٦٧-٩٦٨].

٤- وبعد ذلك قال: ((وبهذا يظهر الفرق بين العاصي [ويقصد رحمه الله تعالى: بين المستكبر والعاصي]: فإنه يعتقد وجوب ذلك الفعل عليه، ويحب أن لا يفعله، لكن الشهوة والنفرة منعته من الموافقة؛ فقد أتى من الإيمان بالتصديق والخضوع والانقياد؛ وذلك قول وعمل؛ لكن لم يكمل العمل)) [الصارم ٣/ ٩٧٢].



٥- وقال: ((فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه؛ فإذا لم يحصل اللازم: دل على **ضعف** الملزوم)) [المجموع ٧/ ٢٣٤].

فهذه نصوص واضحة من هذا الإمام الجهبذ تؤكِّد أنَّ صاحب الكبيرة (أو العاصي دون الكفر) يكون في قلبه أصل الإيمان وهو التصديق؛ الذي هو قول القلب، والانقياد؛ الذي هو عمل القلب؛ لكن هذا العمل غير كامل بل ضعيف لكونه لم يفعل ما أُمِرَ به ولم يترك ما نُهِيَ عنه؛ لكن لا نقول: أنَّ عمل قلبه مفقود أو منتف كما يقول د. سفر؛ وإنَّما نقول: عمله ضعيف أو ناقص.

أما تعليل د. سفر لفقدان عمل القلب بالكبيرة؛ بقوله: ((**لأنَّ** الإرادة الجازمة على الترك يستحيل معها وقوع الفعل))، نقول: وهذا حق ولكنه مع ذلك يحتاج إلى قيد: "مع القدرة" بعد كلمة "الترك" ثم نقول له: الإرادة إما أن تكون جازمة تامة، وإما أن تكون معدومة، وإما أن تكون ضعيفة؛ وهذا معلوم من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى؛ وأنت غفر الله لنا ولك قد نفيت عنه الإرادة الجازمة؛ فإن قصدت: أنَّ الإرادة أصبحت معدومة؛ فهذا على مذهب الخوارج!!، وإن قصدت: أنَّها أصبحت ضعيفة -وهو الحق-: فهذا تناقض مع قولك: ((عمل قلبه مفقود بلا شك))!!.



قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ((والإرادة الجازمة **مع القدرة** تستلزم وجود المراد ووجود المقدور عليه منه، فالعبد إذا كان مريداً للصلاة إرادة جازمة مع قدرته عليها صلَّى؛ فإذا لم يصلِّ مع القدرة **دلَّ ذلك على: ضعف الإرادة**)) [المجموع ٧/ ٥٢٥-٥٢٦].

هذا ما أردت بيانه في هذه العجالة؛ ولنا -إن شاء الله تعالى- معه في كتابه "الظاهرة" وقفات أُخر.

أخوكم ومحبكم

أبو معاذ رائد آل طاهر

١٤- محرَّم - ١٤٢٥هـ